الزهرة التركيّة

في

الحديقة الرهبانية

ترجمة حياة بهيّة خالد المحدثة امس ، والاخت
ماري هيلانة اليوم ، احدى راهبات دير الزيارة ،
في ذوق مكايل . تقلا عن لسانها ، وهي في الدور
الاول من حياتها العالمية ، وعن لسان اهل الدير وهي
في الدور الثاني من حياتها الرهبانية.

بقلم حضرة المنوري يوسف العشيّي المرسل البطريركي

١

دير سيدة البشارة

ساعدني الحظّ ان زرتُ دير سيّدة البشارة في ذوق مكايل الخاص بالاسرة الخازنية . فرأيتُ في هذا الدير ما يطيب للسمع ذكره وما يجلو في الافواه شكره ، من حسنات حسان ، ومآثر جليلة ، لم اشأ أن اغمض عنها دون أن انوّه بها اقرارًا بجميل مَن احسن ، وثناء على الأُلى خلفوا لنا اسماً يخبر بمديحهم[1] .

ان هذا الدير كان سابقاً دار الطيب الذكر والاثر المرحوم الشيخ بشاره جقال الخازن الذي عهد اليه الامير بشير الكبير الولاية على قسم من مقاطعة كسروان . تُوفّي في ذوق مكايل سنة ١٨٢٦ ، دون عقب ، بالعقد السادس من عمره ، ودُفن هناك.

كان بشارة المذكور جميل الخَلق ، طيّب الخُلق ، كريماً سخيًّا وقورًا صاحب رقعة وجاه ، تفرّع من دوحة سناء ، وتحدّر من سلالة كرام ، ولما علم الامير بشير الموما اليه بوفاته ارسل وفدًا من قبله وحجز تركته لذاته ورقم كل ما

---

١) ابن سيراخ ١٤

حوته داره من كلي وجزئي بلائحة ودرّكوا بها ارملته السيدة زيادة وشقيقته الآنسة بادوانية . وابقى الامير لهما ولاية الذوق وعينطورة.

اما ارملته وشقيقته فقد استدعتا من فورهما ابن عمهما الخوري يوسف شاس[1] واقامتاه وكيلاً عنهما ، وشرعتا واياه يلجأون الى الوسائط لاسترضاء الامير بترك دعواه ، مبينين له بطلان ما بلغه من امر الوَرَثة . الى ان اقنعوه اخيراً بان يأخذ من التُراث ١٧٠ الف قرش نقوداً ويترك الباقي للورثة . وبعد استرضاء الامير بالمبلغ المشار اليه ، وحصول كل من الوراث على نصيبه ، اتفقت زيادة ارملة الشيخ بشارة وشقيقته بادوانية على وقف ما اصابهما من تركة فقيدهما ، وعليه التمستا من غبطة البطريرك يوسف حبيش ليكرّس دارهما ديراً على اسم سيدة البشارة ، ويثبت صكّ وقفيتهما بكامل ما ورثاه من مورثهما من ثابت ومنتقل وبكل ما يختص بهما . فسرّ البطريرك بصيتهما هذا واثبت بسلطانه صكّ وقفيتهما في ١٦ تموز سنة ١٨٣٣ مفوضاً ولاية هذا الدير وتدبير شؤونه الى ابن عمهما المطران يوسف الخازن مطران دمشق الذي اتّفق واياهما على جعله ديراً محضاً تُقيم فيه راهبات يسرْنَ بموجب قانون رهبانية زيارة السيدة العذراء التي انشأها القديس فرنسيس دي سال[2] واستدعوا لهذه الغاية راهبتين من راهبات دير عينطورة الذوق لتأسيس فرع من جمعيتهما في الدير المشار اليه ، وهما مريم انطون الاشقر ، ومريم صابات البكرجية ، في

(١) هو الشيخ شاس بن راجي بن بولس الخازن من عجلتون ، ارتقى الى درجة الكهنوت في مدرسة عين ورقة . وفي ٦ نيسان سنة ١٨٣٠ رقاه البطريرك يوسف حبيش الى اسقفيّة دمشق ، فساس الابرشية بالدعة والحلم والمثل الصالح . ولما توفي البطريرك المذكور في ٢٣ ايار سنة ١٨٤٥ ، في كرسي الديمان ، اجتمع الاساقفة في دير سيّدة سيفوق ، وانتخبوه بطريركاً في ١٨ آب سنة ١٨٤٥ . أدار شؤون الطائفة بروح الرب والدعة . وغادر الحياة الدنيا الى لقاء ربه في ٣ تشرين الثاني سنة ١٨٥٩ في الديمان ، ودفن في ضريح سالفيه البطريرك يوحنا الحلو ، والبطريرك يوسف حبيش.

(٢) قد أولت هذه الجمعيّة الرهبانية الكنسية شرفاً اثيلاً بفضائل القديسة فرنسواز دي شنتال ، التي شاركت القديس فرنسيس دي سال في انشائها سنة ١٦١٠ ، وبفضائل عدد لا يحصى من العذارى اللواتي اتنظمن في سلك هذه الجمعية المقدسة ، وخصوصاً القديسة مرغريت ماري الاكرك تلميذة القلب الالهي وناشرة عبادته.

١٥ تموز سنة ١٨٣٦[1].

ولما كثر عدد الراهبات ، وتنظمت احوالهن ، وزالت كل الموانع التي كانت تحول دون القيام بما توجبه القوانين والرسوم الرهبانية بتدقيق ، باشرن بعقد المجامع لانتخاب رئيسة تدبّر امرهنّ.

فاول مجمع عقدنه كان في سنة ١٨٦٠ انتُخبت فيه الاخت حنة فرنسيسكا الخازن . وهكذا بالتتابع الى عقد انتخاب الرئيسة الحاضرة مرغريت شبل الخازن التي جُدّد انتخابها مرارًا باجماع الكلمة لما عُرفت به من الصفات الحسان ، والاخلاق الممدوحة ، والغيرة ، وحسن الادارة والتدبير. فلم تكن الثمانية والسبعون عاماً التي قضت معظمها في داخل جدران ديرها لتفتّ من عضدها في اتمام واجبات الحالة بما ليس بعدها من الدقة والغيرة والنشاط وقيامها بتدبير جميتها بحكمةٍ ودرايةٍ فائقتين.

وليس عجيباً اذا اضحت هذه الابنة الفاضلة موضوع اعجاب اخواتها الراهبات يحفظها قوانين الجمعية بتدقيق وبمارستها الامور الروحية بشوق ونشاط ، وهنّ

---

١) انشأ دير الزيارة بينطورة الذوق الاب انطون ، ورئيس رسالة الآباء اليسوعيين في سورية . فقد شرى محل الدير من الشيخ ابي شروان موسى بن طربيه الخازن بثمن قدره ١٩٠٠ قرش . دفع ثلثي المبلغ تمّا جمعه من الاحسان ومن الطالبات الدخول في الدير . والثلث الباقي من الثمن وهبه الشيخ المذكور للدير مراعاةً لابنته وشقيقته اللتين انضمّتا لعدد الطالبات ، كما في سجلّ الدير وصكّ الشراء المؤرخ في ٧ حزيران سنة ١٧٦٦ .

وبعد ان التأم عدد الطالبات كتب لهنّ الاب الموما اليه قانون راهبات الزيارة الذي ألّفهُ القديس فرنسيس سالس ، ليسرن بموجبه واستحاح الاذن من السيد البطريرك والاساقفة بان يكون مرشدهنّ احد الآباء اليسوعيين . فاجاز ذو النيطة واصحاب السيادة ذلك على شرط ان تبقى الراهبات على طقسهنّ الماروني . وهذه صورة صكّ الاجازة نقلًا عن سجل الدير المذكور :

« تقبل وتثبت جميع ما في باطن هذه الوثيقة اي بان يكون دير العابدات المذكورات تحت حكمنا وحكم خلفائنا دون سائر المطارنة والاساقفة وليكن مرشدوهن حضرة اولادنا الآباء اليسوعيين . وقد ارتضينا بان تكون العابدات تحت قانون مار فرنسيس دي سالّ حيث تحفظ عوائد وطقوس رتب كنيستنا المارونية صح . . البطريرك مسعان عواد . المطران جبرائيل عواد . المطران طوبيا الخازن . المطران جرمانوس . المطران عبدالله حيقوق . »

يرونها امامهنَّ عند الشروع في كل عمل روحي او خدمي رغماً عن ثقل الشيخوخة.

اما الفرض الذي يتوجب على الراهبة تلاوته فهو عينه الذي تتلوه راهبات الزيارة مترجماً عن اصله الفرنسي الى اللغة العربية.

اخصّ قوانين هذه الجمعية ان تقضي الطالبة سنة ابتداء. ثم تجدّد نذورها الثلاث : العفة والفقر والطاعة لمدة ثلاث سنوات . ثم تنذر مؤبداً . وان يكون عمرها من ١٥ سنة وصاعداً . ويمكن قبول الارملة بعمر ٤٠ او ٤٥ سنة اذا كانت ذات سمعة حسنة ومشهوداً لها بحسن سلوكها وتقواها . اما البنات اللواتي يرغبن اعتناق الحياة الرهبانية من الاسرة الخازنية في هذا الدير فيقبلن مجاناً . ومن اخص قوانينها ايضاً واهمها التحصن داخل الدير والخضوع لسلطة البطريرك دون غيره من الاساقفة.

اما من يتولّى الآن إدارة هذا الدير ويتدبر شؤونه الروحية والزمنية فهو سيادة الحبر النبيل المطران يوسف الخازن ، مطران عكا ، الذي جدَّد بناءه وجمله من عداد المباني الفخمة ، وانشأ بالقرب اليه معهداً للتعليم جميل البناء محكم الهندسة . انفق في تأسيسه المبالغ الكثيرة من ماله الخاص . وتلك خلة عرفناها بآل خازن الكرام[1] .

١) ومن عداد الاديرة التي انشأها آل خازن الكرام :

١ دير سيدة البزاز . أنشأه عاد بن صخر الخازن سنة ١٧٤٩ للعابدات . ودير مار الياس بلوني انشأه نمر ابن ابي نصيف نوفل الخازن سنة ١٧٦٦ . وفي هذه السنة عينها انشأ الشيخ عبد السلام بن عبد الملك الخازن دير مار موسى بلوني ايضاً . ودير مار انطونيوس بفاتا .انشأه المطران طوبيا الخازن ١٧٦٦ . ودير سيدة بقلوش انشأه الشيخ ميلان ابن البطريرك يوسف ضرغام الخازن سنة ١٧٨١ . فهذه الاديرة يتولى ادارتها اقارب الواقفين.

اما الاملاك والاديرة الموقوفة للاجانب فهي : دير مار انطونيوس حريصا للرهبان الفرنسيين وقف عمه الشيخ سنتر الخازن . ودير مار انطونيوس خشبو . ودير مار يوسف عينطورة الذوق . ومحل دير سيدة بزمار . ومحل دير الكرم . ومحل دير سيدة الناح . ومحل دير مار مخايل . ومحل سيدة البشارة في ذوق مكايل للروم الكاثوليك . ودير طاميش . ومحل دير عوكر . ومحل دير مار الياس انطلياس . وما عدا ما ذكرنا لهم اوقاف مدرسة عجلتون ، ومدرسة غزير في مزرعة كفرديان . ومدرسة غسطا . وانطش الروم الكاثوليك في ذوق مكايل . وكان لهذه الاسرة الكريمة على عهد ابي نوفل الخازن عدة اوقاف ومشاريع خيرية في جهات كسروان والبوشرية كان ينفق ريعها السنوي على

تحت سقف هذا الدير ، الشاهد الامين على فضائل هذه الزنابق الجميلة التي نقلتها يد العناية الالهية من حقل هذا العالم الشائك الى حديقة الحياة الرهبانية الشائقة ، تتضوع الروائح العطرة فتتناقلها ملائكة السماء كهدايا القلوب ، كعرفان الجميل ، لرب الجنود ولباري الوجود . . .

ومما لفت نظري في هذا الدير على الخصوص امر ابنة تركية الجنس ، مولودة الاستانة ، محمدية المذهب ، تركت في هذا الدير ، من طيب الاحدوثة وجمال السمعة ، وحسن الاثر ، ما تردده الالسنة بالاعجاب . ويملأ المسامع بالذكر الجميل فلم اكن املك على نفسي السكوت عن اعلان هذه البنفسجة العطرة التي نتت الينا بعرفها ودلت عليها بعطرها . وعن نشر ترجمتها بعالم المطبوعات لما في ترجمة حياتها من القدوة الحسنة والمثل الصالح والتعليم والتهذيب . وبيان فضل هذه الجمعية الرهبانية التي ما فتئت تقدم للدين وللانسانية من كنوزها ما تحمد في النقل انباؤه ، ويحسن في السماع خبره ، ويحلو في عالم الطبع نشره .

٢

مريم خانم المحمدية امس والاخت ماري شمعونة اليوم

١

سُئلت هذه الابنة عن اسمها ونسبتها ، ومولدها ووطنها ، وظروف اهتدائها الى الدين المسيحي ، وترهبها في دير الزيارة في اوائل تشرين الثاني سنة ١٩١٧ ، بحضرة مرشدها ورئيستها ولفيف الراهبات ، فاجابت بما يأتي :

اسمي بيته ابنة علي بك كجك مختار باشا . اسم والدتي اسما خانم ، كلاهما من الاستانة .

وُلدت في حي اشقودره سنة ١٨٦٧ . ورضعت الحليب من امرأة مسيحية . كان لي اربعة اخوة توفوا كلهم بداء الجدري في الاستانة . فاصبحت

بمذهبي الشام ، ما خلا ما بثه واسّسه من الكنائس وبذله في سبيل الانشاآت المفيدة كالمياتم والملاجئ والمدارس . . .

وحيدة لوالدي الذي كان يأنف المضارّة[1] ، وهي خلّة تمشت عليها اسرتنا من زمن مديد.

ولما توفيت والدتي كان عمري عشر سنوات تقريباً ، فلم يتزوّج والدي بعد وفاتها ، مع انه كان في منتصف عمره. ولهذا كنت موضوع آماله ومحبته.

اما ظروف اهتدائي الى الايمان المسيحي فمتعدّدة اقتصر على القليل منها :

تجلّت لي رؤيا وانا في السابعة من عمري اقدمها على علّاتها بكل سذاجة: رأيتُ ، وانا في بستاننا ، في ليلة مقمرة ، طفلاً جميلاً متشحاً بلباس ابيض في الجوّ ، وبالقرب منه مصباح متقدٌ . وكأني باشجار البستان انحنت للارض اكراماً له . فتقدمت من شجرة وقطفت من ثمرها ووضعته في حضني فانتفضت الشجرة انتفاضاً ، فخفتُ وصرخت . وللوقت سمعت صوتاً من السماء يقول لي تعالي اليَّ . ولما تراكض اهلي حواليَّ اخبرتهم بامر الشجرة ، ولم اقل لهم ما سمعته ، فقالوا لي : لا تخافي ! هذه ليلة القدر.

من صغر سني كنت اميل الى معاشرة البنات المسيحيات من جيراننا . واتفق ان سعى احد الكهنة المرسلين ببناء كنيسة بالقرب من حيّنا ، فقدّمت له ما تيسر لي توفيره ، دون معرفة والدي.

ولما بلغت العاشرة من عمري ، اتيت مع والدي الى بيروت ، اذ تعيّن مديراً للجمرك من قبل حكومة الاستانة. وبعد مدة عدنا الى الاستانة فمرضت والدتي ، وتوفيت في ريعان الصبا. فقفلت راجعة الى بيروت مع والدي وجدّتي ، وسكنّا في حي الراسقة . وعني والدي بتدريبي اللغة العربية ، فكان يرسلني كل يوم مع خادمة بيتنا الى مدرسة راهبات الناصرة . وكان يقوى في فكري اعتناق الدين المسيحي. ولما كاشفت الراهبات بذلك ، خفنَ واخطرنَ واعتذرنَ بان ليس برسمهنَّ قبولي عندهنَّ . فضاقت بي الحيلة لعلمي بان اهلي يكرهون الدين المسيحي ، فانهم سخروني يوماً اردّد في حجرتي على انفراد الصلوة الربية ، فانتهروني ولطموني على خدي وفمي ، وحذّروني من ترديد هذه الصلوة.

(١) تكثير النساء.

احتجنا الى كوّاية في بيتنا . فهدانا الجيران الى كواية من بنات راهبات المحبة تكوي امتعة كنيسة القصادة الرسولية فاستقدمناها . وتعلقت انا بها وكشفت لها امري ؛ فوعدتني بانها توصلني الى سيادة القاصد الرسولي لودوفيكوس بيافي المقيم في بيروت . فاتفقت معها على الذهاب لديه.

واستأذنت جدّتي طالبةً اليها بان تسمح لي بالذهاب مع الكواية للنزهة . فاذنتني ، وكان والدي في ذلك الوقت متغيباً عن البيت. فخرجت في ٢٥ من شهر كانون الاول سنة ١٨٨١ ، فلم نتمكن من مقابلة سيادة القاصد بسبب توارد المهنئين له بعيد الميلاد . ولم اردّ العودة الى البيت ، فاختبأت في دار الكواية . ولما استبطأني اهلي بثّوا المنادين في المدينة يفتشون عني . وسمعت باذني صوت المنادي ، وانا في بيت الكواية الذي كان قريباً من دار القصادة.

ثم اختبأت والكواية في محل آخر الى ان تيسر لي فاتيت الى هنا ، الى دير سيدة البشارة . فاهتمت اذ ذاك الرئيسة بامري كل الاهتمام . فتثقفت في الحقائق الدينيّة ، من اوائل سنة ١٨٨٢ الى الثامن من ايلول سنة ١٨٨٤ ، حيث نلت نعمة العماد المقدس من يد مرشد الراهبات المرحوم الخوري يعقوب حجيلي ، وكان عمري ١٥ سنة.

وفي العاشر من شهر حزيران سنة ١٨٩٠ لبست ثوب الابتداء ودعيت باسم الاخت ماري هيلانة.

اني اشكر الهي من صميم فؤادي على نعمة اهتدائي الى الدين المسيحي الكاثوليكي المقدس ، وعلى الخصوص بانسلاخي عن العالم وتدثري بالثوب الرهباني المقدس. . اه.

هذا ما قالته هذه الابنة الفاضلة عن نفسها . واما ما تتناقله السن اخواتها ومدبّريها ومرشديها عن فضائلها ، وقداسة سيرتها فهو كما يلي . فلم اشأ ان يبقى ذلك ضمن نطاق ديرها يردّده الخلف عن السلف بل ان يُذاع ويُشاع عبرةً وذكرى.

(للبحث صلة)